بصعيد مصر. وفي القرن الرابع الهجري (١٠م) أنزل الفاطميون القرشيين في مدينة أشمون على النيل بين المنيا وأسيوط بجوار جهينة فاستقروا بها حتى أصبحت أشمون تعرف بديار قريش. ويبدو أن عدد قريش قد تكاثر بالصعيد ودخلوا في منازعات مع قبيلة جهينة فخرجت جهينة من أشمون للقرشيين واستقرت بجوار بلي في منطقة أخميم على النيل. وذكرت المصادر أنه كانت هنالك بعض الخلافات والعداء بين قبيلتي بلي وجهينة حتى دخول القرشيين، فاتفقت القبيلتان واستقرتا جنوب الأشمونيين.

وقد أوضح المقريزي في كتابه "البيان والأعراب" الاتفاق الذي تم بين جهينة وبَلي في الاستقرار جنوب الأشمونيين كما يلي: "ثم اتفقت هي (بلي) وجهينة فصار لبلي من جسر سوهاج غرباً إلى قريب من غرب قمولة، وصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب".[١] وأوضح عبد المجيد عابدين[٢] أن قاو الخراب من البلدان المندرسة في مركز البداري بمديرية أسيوط.

وبناءً على هذا فإن نصيب قبيلة جهينة قد امتد في شرقي النيل حتى عيذاب، وليس كما ذكر ماكمايكل – ونقل عنه مصطفى مسعد – أنه بعد الصلح بين بلي وجهينة استقرت بلي في المنطقة الواقعة بين مصر وميناء عيذاب.[٣] ولم يوضح ماكمايكل مصدره، وقد أشار في الحاشية إلي خطط المقريزي ولكنني لم أعثر على

(١) المقريزي، أحمد بن علي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل، تحقيق عبد المجيد عابدين، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، (ب ت)، ص ٢٩.

(٢) عبد المجيد عابدين، كتاب البيان والإعراب، ص ٢٩، حاشية رقم ٦٢.

(٣) H. A. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan*. London, Frank Cass & Co. 1967, Vol. 1, p 37.

مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠، ملحق رقم ٨، ص ٢٥٩.

النص في الخطط. ونزحت جماعة منهم في وقت مبكر إلى أرض المعدن في نهاية القرن الثالث الهجري.(٤)

وقد أشار القلقشندي إلى الاتفاق الذي تم بين بلي وجهينة في أكثر من مكان. جاء في المكان الأول ما يلي:

"كانت جهينة بالأشمونين جيراناً مع قريش كما هم بالحجاز، فوقع بينهم واقع أدّى إلى دوام الفتنة، فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على جهينة خافت بليّ فانهزمت إلى أعلى الصعيد، إلى أن أُديلت قريش وملكت أماكن جهينة، ثم حصل بينهم جميعاً الصلح على مساكنهم التي هم بها الآن، وزالت الشحناء من بينهم، ثم اتفقت جهينة وبليّ على أن يكون لجهينة من المشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب. ولبليّ من جسر سوهاج إلى قريب من قمولة".(٥)

وجاء في المكان الثاني عن قبيلة جهينة:

"قال الحمداني (ت٦٧٠هـ/١٢٧١م) وهم أكثر عرب الصعيد في الديار المصرية، ولهم بلاد منفلوط وأسيوط. قال: وكانت مساكنهم في بلاد قريش يعني الأشمونيين فأخرجتهم قريش بمساعدة الخلفاء الفاطميين فصاروا إلى بلاد أخميم أعلاها وأسفلها. قال: ويروي أن بلياً وبطونها كانت بهذه الديار، وجهينة بالأشمونيين جيراناً بمصر كما هم بالحجاز، فوقع بينهم واقع أدى إلى دوام الفتنة فلما أتى العسكر المصري لإنجاد قريش على جهينة خافت بلي فانهزمت

(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، تاريخ اليعقوبي، في مصطفى محمد مسعد (فيما يلي نشير إليه بمسعد)، المكتبة السودانية العربية، الخرطوم: مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم، ١٩٧٢، ص ١٢.

(٥) القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، موقع الوراق www.warraq.com، ج١، ص ١٢.

إلى أعلى الصعيد إلى أن أديلت قريش ببلاد الأشمونيين وجهينة ببلاد أخميم فزالت الشحناء من بينهم".[٦]

وذكر القلقشندي عن بَلي: "وديارهم أخميم وما تحتها، قال: واتفقوا هم وجهينة فصار لبلي من جسر سوهاج إلى قمولة، وصار لها من الشرق من عقبة قار الخراب إلى عيدان".[٧]

فالنص الأول جعل المنطقة الشرقية حتى صحراء عيذاب من نصيب قبيلة جهينة، وليست من نصيب قبيلة بلي. والنص الثاني جعل بلي تتراجع جنوباً على النيل، وليس شرقاً في الصحراء. وهذا نفسه ما ورد في النص الأول الذي فسر فيه أعلى الصعيد "من جسر سوهاج إلى قريب من قمولة". بينما حدد النص الثالث منطقة جهينة مختلفةً عما سبق. فقد "صار لها من الشرق من عقبة قار الخراب إلى عيدان". فإذا قبلنا أن "قار الخراب" بحرف الراء في "قار" تحريف بسيط لقاو الخراب، من الممكن الوقوف قليلاً مع "عيدان" التي وردت في النص في مكان عيذاب.

ويبدو محتملاً أن لا يكون ميناء عيذاب هو الاسم الصحيح في أصل الاتفاق، لأن المنطقة ما بين النيل وصحراء عيذاب منطقة واسعة، وليست ملكاً أو تحت دائرة نفوذ قبيلتي بلي وجهينة ليحددا مصيرها ويجعلانها مقراً أو منتجعاً لقبيلة جهينة فقط، فهذا شيء لا يملكانه. وفي واقع الأمر فقد كان بعض أفراد قبيلة جهينة يتجول في صحراء عيذاب أو الصحراء الشرقية إلى جانب بعض أفراد القبائل الأخرى. فقد ورد وجود جهينة في الصحراء شرقي النيل كما يتضح من نص ابن بطوطة الذي مرّ بالمنطقة عام ٧٣٢هـ/١٣٣٣م:

(٦) نفس المصدر، ص ٧٦.

(٧) نفس المصدر، ص ٦٤.

"ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب، فردتنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البجاة. ووردنا ماء كثيرة النعام والغزلان، فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة. ووردنا ماء يعرف بمفرور، وماء يعرف بالجديد. ونفذ زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناماً وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبياً من العرب كلمني باللسان العربي وأخبرني أن البجاة أسروه، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً... وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير، وصلنا إلى عيذاب ... واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم... ووصلنا إلى قرية العطواني، وهي على ضفة النيل، مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى".[٨]

يتضح من النص أن سلطة البجة كانت قوية ومستقرة لدرجة كانت القبائل العربية المتجولة في المنطقة مثل قبيلة جهينة وبني كاهل تحت حكمهم. وكان البجة يسيطرون ويحمون طرق التجارة من حاضرتهم مدينة سواكن والمناطق الواقعة إلى الجنوب والشمال منها. ويبدو أن أمراء مكة وجدة – سعياً وراء استقرار أمن وسلامة الطرق التجارية – قد تصاهروا مع البجة. فقد كان سلطان جزيرة سواكن، كما ذكر ابن بطوطة حين وصلها: "الشريف زيد بن أبي نمي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده ... وصارت إليه من قبل البجاة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجاة، وبني كاهل وعرب جهينة" وكان اختلاط أولاد كاهل بالبجة قوياً بحيث أصبحوا يتحدثون لغة البجة حسب قول ابن بطوطة: "بني كاهل، مختلطين بالبجاة، عارفين بلسانهم".[٩]

(٨) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٥٦.

(٩) نفس المصدر، ص ٢٥٥.

فابن بطوطه في تجواله من جنوب سواكن وحتى مدينة ادفو على النيل في صعيد مصر وجد جهينة وبني كاهل فقط في مناطق البجة، واكترى جمالاً من عرب دغيم ليصل إلى ادفو. وذكر ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م) في كتابه في حوادث سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢م أن عربان جهينة ورفاعة تقاتلوا في صحراء عيذاب فكتب السلطان الظاهر بيبرس إلى حاكم أسوان ليصلح بينهم من أجل سلامة الطريق.[١٠] وهكذا كانت الصحراء الشرقية موطناً لجهينة وبني كاهل وعرب دغيم ورفاعة، ولم تهيمن جهينة وحدها على المنطقة، بل كان الوجود الكبير لجهينة على النيل في الصعيد أكثر منه في الصحراء الشرقية.

وبنو كاهل كما ذكر القلقشدي فرعان، قحطانية وعدنانية. فبنوكاهل القحطانية من قضاعة والعدنانية من بني أسد من خزيمة.[١١] ولم يوضح أماكن وجود كل منهما في مصر، الأمر الذي يصعب معه تحديد إشارة ابن بطوطة. ويبدو أن نفوذ عرب دغيم كان قوياً في الصحراء ما بين عيذاب وادفو (جنوب الأقصر). ولم تشر المصادر إلى وجود عرب دغيم في مصر، كما لم ترد في كتب نسب القبائل العربية المبكرة، ولكن ذكر اسمهم مقترناً برآسة عشائر العقيلات والرواشدة بالعراق.[١٢]

أما رفاعة التي كانت في مصر فمجموعتان، إحداهما عدنانية والأخرى قحطانية. فالقحطانيون هم عند السيوطي من جهينة ولم يذكر أماكن وجودهم في مصر. وذكر القلقشندي إنهم بطن من بني عامر ويسكنون منطقة أخميم، وكذلك بطن من بني هلال

(١٠) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٦٨.

(١١) القلقشندي، نهاية الأرب، ج١، ص ٨٠، ١١٣.

(١٢) عباس العزاوي، عشائر العراق. موقع الوراق www.warraq.com ص ١٢٠.

ورفاعة الأخرى من جذام القحطانيين ومساكنهم في الوجه البحري.[١٣] وهكذا كان وجود قبيلة جهينة في صعيد مصرعلى النيل بجوار بلي والقرشيين، وفي الصحراء الشرقية مع بني كاهل ودغيم ورفاعة، ويبدو أن عددهم كان قليلاً لأنهم كانوا تحت طاعة البجة.

نصوص ابن خلدون عن جهينة

أورد ابن خلدون بعض المعلومات عن قبيلة جهينة يبدو فيها الكثير من الخلل والاضطراب، وربما رجع السبب في ذلك إلى بعض الأخطاء في النقل، أو سقوط بعض أجزاء النصوص من نسخة إلى أخرى. وربما رجع السبب أيضا إلي بعض أحكام ابن خلدون العامة عن النوبة، وتوحي بأن معرفة ابن خلدون بما جرى في المنطقة لم تكن دقيقة، مع العلم بأنه حضر لمصر عام ٧٨٤ هـ/١٣٨٢م، ويكون بذلك على عهد قريب بالكثير من الأحداث الهامة التي صاحبت وأعقبت إسلام ملوك المقرة. فقد توفي في مصر عام ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م.

ذكر ابن خلدون أن قبيلة جهينة كانت لا تزال موجودةً في الجزيرة العربية على سواحل البحر الأحمر الشرقية حتى عصره، حيث قال: "فجهينة ما بين الينبع ويثرب إلى الآن في متسع من برية الحجاز وفي شماليهم إلى عقبة ايلة مواطن بلى وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم". ثم أضاف إنهم عبروا إلى الضفة الغربية بأعداد كبيرة وخاضوا حروباً كثيرة استمرت حتى عصره، فقد قال: "وأجاز منهم أمم إلى العدوة الغربية وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى

(١٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ج١، ص ٩٠، والسيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، موقع الوراق www.warraq.com ، ج١، ص ٩٠.

هذا العهد".[١٤] ولم يوضح ابن خلدون متى عبرت جهينة البحر إلي الضفة الغربية للبحر الأحمر. وقد يفهم من النص أن ذلك العبور كان في عصر ابن خلدون لأنه ربط بين وجود القبيلة في شرق البحر الأحمر وانتشارها بين صعيد مصر والحبشة، وكيف أنهم كانوا من الكثرة بحيث غلبوا جميع الأمم وفرقوا كلمة بلاد النوبة وأزالوا ملكهم!

ومن المعروف أن بَلي وجهينة عبرتا إلي مصر عند دخول العرب مصر في مرحلة الفتوحات في أول القرن الأول الهجري. ولم يذكر المؤرخون والنسابة الذين كتبوا قبل وبعد ابن خلدون عن عبور لاحق لقبيلة جهينة في القرون التالية واستقرارهم في الصحراء الشرقية والقيام بما ذكره ابن خلدون من توسعات وحروب. فليس هنالك ما يؤيد هذا النص في المصادر العربية، بل أشار ابن بطوطة الذي مر بالمنطقة في أول القرن الثامن الهجري (١٤م) إلى وجود جهينة مع غيرها من القبائل العربية، وقد رجحنا أن عددهم كان قليلاً لأنهم كانوا تحت طاعة البجة.

ولا أظنني بحاجة إلى التعليق على ما كتبه محمد عوض محمد عن هذا النص حيث ذكر: "في عبارة ابن خلدون هذه – مع ما هو معروف عنه من دقة التعبير ما يدل دلالة صريحة على أن جهينة كانت قبيلة عظيمة تسلك في هجراتها مختلف السبل إلى صعيد مصر وإلى بلاد النوبة وإلى شرق السودان وإلى بلاد الحبشة".[١٥] فقد شكك محمد عوض قبل صفحتين من هذا التعليق في دخول قبائل جهينة إلى السودان عن طريق الشرق، ورجح أنها دخلت عن طريق الشمال الغربي أو درب الأربعين أو

(١٤) ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٨٠.

(١٥) محمد عوض محمد، السودان الشمالي سكانه وقبائله. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١، ص ٢١٣.

من أي طريق في الصحراء الليبية على حسب تعبيره.[١٦] وقد نقل القلقشندي عن ابن خلدون عن أحد فروع قبيلة قضاعة ما يلي:

"العمارة الرابعة: من الموجودين من بقايا قضاعة: بهراء، بفتح الباء الموحدة، وهم: بنو بهراء بن الحافي بن قضاعة. قال في العبر: وكانت منازلهم شمالي منازل "بليّ" من الينبع إلى عقبة أيلا. ثم جاوز خلق كثير منهم بحر القلزم وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هناك وغلبوا على بلاد النوبة".[١٧]

جعل هذا النص فرع بهراء من قبيلة جهينة هو الذي قام بالحروب والهيمنة التي ذكرها ابن خلدون. ولا يوجد هذا النص فيما نقله مسعد عن ابن خلدون في المكتبة السودانية، كما لم أعثر عليه في النسخ التي استخدمها، ولم أعثر على أي ذكر في كتاب ابن خلدون لبهراء. كما لم تشر كتب التاريخ والأنساب والرحلات لوجود هذا الفرع من قبيلة قضاعة في مصر. وعلى كل حال فإن المعنى العام للنصين يعطي قبيلة جهينة أو فرعها بهراء السيادة والهيمنة على المنطقة، وهو ما لم يحدث في الواقع.

وفي مكان آخر ذكر ابن خلدون:

"وبالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة كلهم من جهينة إحدى بطون قضاعة، ملأوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم، وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها والذين يلون أسوان هم يعرفون بأولاد الكنز".[١٨]

(١٦) نفس المرجع، ص ٢١٠.

(١٧) القلقشندي، قلائد الجمان، موقع الوراق www.warraq.com، ج ١، ص ٤.

(١٨) ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٧٩.

ويمثل هذا النص الأسلوب العام الذي عالج به ابن خلدون تاريخ النوبة ويلاحظ عليه:

أولاً: لم تكن كل القبائل العربية بالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة من جهينة كما ذكر ابن خلدون. فالقبائل التي كانت في الصحراء الشرقية، كما ذكرها ابن بطوطة الذي مر بالمنطقة بعد نحو خمس عشرة عاماً من نهاية حكم مملكة المقرة المسيحية، هي: بني كاهل ودغيم ورفاعة إلى جانب عرب جهينة. وذكر ابن بطوطة أن قبيلتي جهينة وبني كاهل كانتا تحت طاعة البجة، وأن بني كاهل يتحدثون لغة البجة كما ذكرنا أعلاه. ويوضح ذلك أن النظام السياسي للبجة كان مستقراً وكان البجة أقوياء يسيطرون على المنطقة ويشرفون على النشاط التجاري. ولا يستقيم هذا مع ما ذكره ابن خلدون من هيمنة جهينة على المنطقة إلى بلاد الحبشة.

ثانياً: ذكر ابن خلدون أن "بالصعيد الأعلى من أسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة كلهم من جهينة"، والقبائل العربية التي كانت تعيش بين أسوان وبلاد النوبة هي القبائل التي اشتركت في غزو المماليك لمملكة المقرة، ولم تكن قبيلة قضاعة بينها كما ورد في كل المصادر التي تناولت ذلك الصراع. ولو كانت قبيلة قضاعة موجودة ما بين أسوان والنوبة وبالعدد والقوة التي ذكرها ابن خلدون لكانت على رأس القبائل العربية التي صحبت جيوش المماليك في صراعها الذي استمر نحواً من أربعين سنة وانتهى بإسلام ملوك المقرة في بداية القرن الثامن الهجري (١٤م). وقد اتفق المؤرخون ومعهم ابن خلدون نفسه على أسماء قبائل العرب التي صحبت جيوش المماليك وهي: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر،

وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان البرلسية[١٩] وبني هلال.[٢٠] وسنتناول هذه الجماعات بشيء من التفصيل لاحقاً.

ثالثاً: القبائل العربية التي هيمنت على الأحداث ما بين أسوان إلى دنقلا غرباً وحتى عيذاب وسواكن شرقاً بعد إسلام ملوك المقرة وحتى نهاية القرن الثامن الهجري – أي عندما كان ابن خلدون عائشاً في مصر – هم أبناء الكنز من ربيعة والعكارمة من الأنصار، وبنو جعد من لخم، وبنو شيبان، وأولاد عمر الذين رجحنا كونهم من قضاعة، وعرب الأحامدة من كنانة الكلبية، ولم تكن جهينة بين هذه القبائل.[٢١] ومن جانب آخر فإن المصادر المعاصرة لتلك الأحداث والتي كتبت عن قبيلة جهينة مثل كتب المقريزي والقلقشندي والسيوطي لم تشر إلى هيمنة أو سيطرة أو وجود قبيلة جهينة ما بين أسوان والنوبة.[٢٢]

ويضيف ابن خلدون عن انتشار جهينة في بلاد النوبة بعد هزيمة مملكة المقرة عام ٧١٦ هـ/١٣١٦م قائلاً:

---

(١٩) لم يذكر ابن خلدون العربان البرلسية ضمن الحملة بينما ذكرهم النويري وابن الفرات والمقريزي كما هو موضح في الحاشية التالية. ولم أتمكن من التعرف عليهم، إذ لم أعثر عليهم في المصادر التي اطلعت عليها. وقد أضاف ماكمايكل إلى عربان الحملة ما أسماهم Beni Rais وذكر أنهم من قبيلة بلي. ولم يرد هذا الاسم في المصادر التي ذكرت أسماء القبائل التي شاركت في الحملات، ولم يذكر ماكمايكل مصدره. وربما قصد ماكمايكل العربان البرلسية. Mac Michael, *A History of the Arabs in the Sudan*. London, Frank Cass & Co., 1967, Vol. 1, p. 183.

(٢٠) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٢٣. ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٧٨، المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٣٣١ – ٣٤٢. ابن الفرات، مصدر سابق، ص ٢٦٩ – ٢٧١.

(٢١) انظر المقريزي، السلوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٣٤٦ – ٣٥٢.

(٢٢) أما ما ورد في النص من إضافة أولاد الكنز إلى قضاعة فواضح أن فيه تصحيف، إذ من المعروف أن بني الكنز لا ينتمون إلى جهينة.

"ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملكوها وملأوها عبثاً وفساداً، وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت، فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض، فصاروا شيعا لهذا العهد ولم يبق لبلادهم رسم للملك وإنما هم الآن رجالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الأعراب، ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام والله غالب على أمره والله تعالى ينصر من يشاء من عباده". (٢٣)

وكما سبق أن وضحنا، فإن المصادر لم تشر قط إلى اشتراك جهينة في غزو النوبة أو مصاهرة الأسرة الحاكمة أو المشاركة في الأحداث التي تلت إسلام ملوك المقرة، بل حدث ذلك من قبيلتي بني الكنز وهم من ربيعة وبني جعد وهم من لخم. ولم يكن لجهينة أي حضور في ذلك. يبدو واضحاً أن معلومات ابن خلدون عن الأحداث التي صاحبت انهيار مملكة المقرة جاءت مختصرة اختصاراً شديداً وتفقد الدقة والمصداقية. ولعل أهم ما يلاحظ على هذا النص أنه خلا من دور بني الكنز في تلك الأحداث، إذ لم يرد ذكرهم في كل ما كتبه ابن خلدون عن تلك الفترة ما عدا ذكر اسمهم ضمن العربان الذين شاركوا في حملة ٦٨٦هـ، أي قبل ثلاثين سنة من الحملة التي أنهت مملكة المقرة المسيحية.

ومن المعلوم أن أبناء الكنز قويت علاقتهم بملوك المقرة، وقد صاهر أبناء الكنز – وليس الجهنيين – ملوك النوبة، وكانوا على رأس العربان في كل حروب المماليك ومملكة المقرة، كما ذكرت المصادر. فقد شاركوا في حملة عام ٦٧٤ هـ/١٢٧٥م،

(٢٣) ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٧٨.

وحملة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وحملة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. وفي هذه الحملة الأخيرة تقدم ملك النوبة الجيش ومعه أبناء الكنز، كما ذكر النويري المقريزي، "ليؤمّن أهل البلاد ... فكان العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشائخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وعادوا". كما اشتركوا في حملة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، وحملة ٧١٦هـ/١٣١٦م.(٢٤)

وقد بلغ ملك النوبة كرنبس أن السلطان محمد بن قلاون يعمل على إرسال الأمير النوبي المسلم عبد الله برشمبو ليتولى عرش النوبة، بعث إليه ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر ليعيّنه ملكاً إذا أراد أن يولي عرش النوبة مسلماً فاعتقل السلطان كنز الدولة، وملك برشمبو دنقلة وحُمِل كرنبس وأخوه أبرام إلى القاهرة، وأفرج عن كنز الدولة. ولما عاد كنزالدولة أيده النوبة ضد برشمبو وقتلوه وتم تعيين كنز الدولة ملكاً. عندئذ بعث السلطان أبرام إلى النوبة ليقبض على كنز الدولة ويرسله إلى القاهرة ووعده بالإفراج عن أخيه كرنبس. ولما وصل أبرام دنقلة قبض على كنز الدولة لكن أبرام توفي قبل إرسال كنز الدولة لمصر. فاجتمع عليه النوبة وجعلوه ملكاً عليهم. وأضاف المقريزي أنه في عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م خرجت حملة لبلاد النوبة معها كرنبس ففر كنز الدولة وتولى كرنبس الملك. ولما عاد الجيش إلى القاهرة عاد كنز الدولة وحارب كرنبس واستولى على الملك.

وهكذا كانت صلة أبناء الكنز بملوك النوبة قوية، كانوا يطمعون في تولي عرش المقرة، وربما كان ذلك هو الدافع إلى مصاهرة الأسرة المالكة. وربما كان ذلك هو السبب أيضاً في اشتراكهم في حملات المماليك ضد المقرة لكي يعينوهم ملوكاً، خاصة وأن بعضهم أصبح من أبناء أخوات الملوك. ويبدو أن المماليك لم يمكّنوهم من الاستمرار في الحكم، فقد ذكر المقريزي قدوم رسولٍ من ملك النوبة بعد هذه

(٢٤) انظر النويري، مصدر سابق، ص ٢١٨ – ٢٣٠؛ المقريزي، السلوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٣٣٣ – ٣٣٤.

الأحداث، ولكنه لم يوضح الغرض من البعثة.[٢٥] ويبدو مقبولاً أن يكون هدف الزيارة مساعدة الأسرة المالكة ضد أبناء الكنز.

ولم تتعرض المصادر لأحداث العقدين اللذين تليا انهيار مملكة المقرة. ولكن ذكر ابن فضل الله العمري عن النوبة في كتابه "مسالك الأبصار" الذي انهاه بحوادث عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، أي قبل وفاته بست سنوات، أن "ملكها الآن مسلم من أولاد كنز الدولة".[٢٦] ومن الصعب التكهن بما آلت إليه المنافسة على عرش المقرة بين الأسرة المالكة القديمة وأبناء الكنز. كما لم يرد أيضاً أيّ ذكر لنشاط أبناء الكنز في أحداث صعيد مصر حتى عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م عندما استعان المماليك بأبناء الكنز على القضاء على بعض الاضطرابات في جنوب مصر.

غير أن السنوات التالية شهدت توتراً في العلاقات بين أبناء الكنز والمماليك، وتحالف أبناء الكنز مع العكارمة وبني جعد ضدهم. ويبدو أن هدفهم كان قطع طرق تجارة واتصالات المماليك جنوباً لأنهم أغاروا عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م على صحراء عيذاب وسواكن والواحات الداخلة واستباحوا أسوان. وكما عبر المقريزي فقد كانوا "يقتلون وينهبون، ويخربون الدور، ويحرقون بالنار، حتى أفنوا عدة من الناس، وأسروا النساء، وفعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية".[٢٧] وتوالى الصراع بين الجانبين، فقد ذكر المقريزي عدداً من المواقع الحربية بينهما حتى بداية القرن التاسع الهجري.[٢٨]

(٢٥) المقريزي، السلوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٣٤٥.

(٢٦) العمري، ابن فشل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ١٤٣.

(٢٧) المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٥٣، موقع الوراق. www.warraq.com

(٢٨) نفس المصدر، ص ٣٢٤، ٣٨٠، ٤٩١.

وقد ذكر المقريزي قدوم وفد من النوبة فيه ركن الدين كرنبس من أمراء النوبة عام ٧٦٧ هـ/١٣٦٥م حاملاً رسالة من ملك دنقلة. ويتضح من اسم الأمير أنه من السلالة الحاكمة النوبية وليس عربيّاً. وأوضح الأمير أن ابن أخت الملك خرج عن طاعته واستنجد ببني جعد من العرب حيث قُتِل الملك، ثم غدر ابن أخته ببني جعد، مما يشير إلى أنه ليس عربيّاً. واضطربت الأوضاع فأرسل المماليك جيشاً هزم بني جعد وحلفاءهم بني الكنز والعكارمة.[٢٩]

وفي عام ٨٠٠ هـ/١٣٩٧م، أي قبل وفاة ابن خلدون – الذي تحدث عن تلاشي ملك النوبة على أيدي جهينة – بثماني سنوات وصل ملك النوبة نفسه فاراً إلى القاهرة من ابن عمه طالباً المساعدة من السلطان المملوكي، وأمر السلطان والي أسوان بتقديم المساعدة إليه. ولم يذكر المقريزي ما حدث بعد ذلك. ومن غير المقبول أن يكون هذا الملك من بني الكنز أو العكارمة، القبيلتين اللتين كانتا في العقود الماضية في حروب مع المماليك. والافتراض الأقوى أن يكون هذا الملك نوبيّاً.

ويعني هذا أن مملكة النوبة كانت لا تزال موجودةً وأن الملوك النوبة ربما كانوا لا يزالون يحتفظون بملكهم حتى بداية القرن التاسع الهجري (١٥م). ومن المؤكد أن مملكة النوبة كانت قائمة ومستقلة عن المماليك حتى بعد وفاة ابن خلدون، فقد قال عنها القلقشندي ت ٨٣١ هـ/١٤٤٥م: "وهي الآن مملكة مستقلة بذاتها ولذلك أوردت مكاتبة صاحبها في جملة الملوك". ووضح أن رسم المكاتبة إلى ملكها: "صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير، الغازي، المجاهد، المؤيد، الأوحد، العضد، مجد الإسلام، زين الأنام، فخر المجاهدين، عمد الملوك والسلاطين".[٣٠]

(٢٩) المقريزي، السلوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٣٤٧–٣٥٠.

(٣٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٩٠.

فمملكة النوبة كانت لا تزال قائمة بعد وفاة ابن خلدون في أول القرن التاسع الهجري (١٥م) ولها أسلوب مكاتبة كما رآه ونقله القلقشندي. وليس هنالك ما يمنع بقاء التنظيم السياسي للنوبة المسلمين على الأقل حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، لأن الآثار وضحت وجود مملكة دوتو المسيحية حتى عام ١٤٨٠م (٨٩٠هـ) في منطقة ابريم شمال وادي حلفا.[٣١]

وقد لاحظ مسعد ما في نص ابن خلدون من خلل وذهب إلى أن دور عرب جهينة "في إسقاط البيت الملكي النوبي غير أكيد".[٣٢] كما لم يقبل مسعد ما ذكره ابن خلدون من أن "عرب جهينة صبغوا النوبة بصبغة البداوة فأصبحوا رحالة يتبعون مواقع الغيث، فهذا لا يتفق وما هو معروف عن جو النوبة الجاف".[٣٣] كما عبر ماكمايكل عن نفس المعنى فرجح أن ابن خلدون ربما قصد ممالك النوبة الجنوبية عندما تحدث عن الانهيار وتمزق الملك، فقد اعتبر أن مملكة بني الكنز كانت لا تزال قوية في الشمال.[٣٤]

(٣١) B. G. Haycock, "Medieval Nubia in the perspective of Sudanese history", *Sudan Notes & Records*, Vol. LIII 1972, pp. 19, 29; Derek A. Welsby, The Medieval Kingdom of Nubia Pagans, Christians and Muslims along the Nile. London: the British Museum Press, 2002, p. 250;

أحمد المعتصم الشيخ، التاريخ الثقافي والحضاري لمنطقة التكاكي ١٢٨٠– ١٤٨٠، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ص ١٩٩.

(٣٢) مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠، ص ١٧٥.

(٣٣) نفس المرجع، ص ١٧٧.

(٣٤) H.A. Mac Michael, *op.cit.*, p.139 f.n. 3.

وتبقى من نص ابن خلدون الجزء المتعلق بانقطاع الجزية، وهذا أيضاً مثالاً لنصوص ابن خلدون العامة غير الدقيقة عن النوبة. يقول ابن خلدون: "ثم ان أهل النوبة اجتمعوا على نشلى وقتلوه بممالاة جماعة من العرب سنة تسع عشرة[٣٥] وبحثوا عن كربيس ببلد الأبواب فألفوه بمصر وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وانقطعت الجزية بإسلامهم".[٣٦]

اختصر ابن خلدون كل الأحداث التي تلت مقتل عبد الله برشمبو في سطرين وقرر أن الجزية انقطعت بإسلام النوبة كما هو واضح من النص.[٣٧] ولا يبدو هذا الحكم مقبولاً، لأن إسلام الملوك لا يعني بالضرورة إسلام كل الشعب حتى تنقطع الجزية. وقد أثبتت المخلفات الآثارية وجود المسيحية في حدود مملكة المقرة إلى أوقات متأخرة امتدت حتى نهاية القرن الخامس عشر كما ذكرنا أعلاه.

وقد أشار الرحالة أيليا شلبي أثناء مروره بمنطقة النوبة عام ١٦٧٠/١٦٧١م إلى وجود كثير من المسيحيين حتى ذلك الوقت بلغ عددهم في بعض مناطق المحس ما بين أربعة إلى خمسة ألف مسيحي. وفي تعليقه على الرحلة تشكك بروفسير علي عثمان محمد صالح في تلك الأرقام ودعا إلى المزيد من العمل الآثاري في تلك المواقع

(٣٥) ورد في نص ابن خلدون "تسع" والتصحيح من القلقشندي الذي نقل معلوماته هنا على ابن خلدون.

(٣٦) ابن خلدون، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤٢٩.

(٣٧) فهم مسعد أن الجزية انقطعت بإسلام الملوك وعلق على ذلك قائلاً: "إن اعتناق الملك النوبي للإسلام لا يعفي رعاياه المسيحيين من دفع الجزية للسلطان" رغم إنه عاد وقرر أن انقطاع الجزية تم بإسلام النوبة "حسبما ذكره ابن خلدون"، مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص ١٧٢ – ١٧٣. كما ذكر مسعد أنه لم يرد نص في المصادر يوضح إسلام كرنبس، وقد فات عليه إسلام كرنبس قد ورد عند القلقشندي في كتابه في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٨٧.

للتحقق من الأمر.[٣٨] وبناءً على ذلك يكون حكم ابن خلدون عن إسلام النوبة وانقطاع الجزية بإسلامهم مثل أحكامه العامة وغير الدقيقة السابقة.

العربان في غزو مملكة المقرة

ورد بين أسماء القبائل العربية التي ساهمت في غزوات النوبة في عصر المماليك ما أطلقت عليه المصادر عربان الأقليم. يقول النويري أن حملة عام ٦٨٦ هـ/١٢٨٧م على النوبة تكونت من: "متولي الأعمال القوصية، بعدته ومن عنده من المماليك السلطانية، المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم وهم: أولاد أبي بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وجماعة من العربان الريسية، وبني هلال".[٣٩]

وجاء نفس النص عند ابن الفرات وابن خلدون والمقريزي. غير أن ابن خلدون والمقريزي لم يذكرا "الأعراب الريسية" بينما ذكرهم ابن الفرات. وقد ورد اسم هؤلاء الأعراب في نسخة كتاب النويري المطبوع في مسعد "البرلسية"،[٤٠] ولم توضح المصادر إلى أي القبائل ينتمي أولاد بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان

(٣٨) نشرت دراسته عن رحلة إيليا شلبي أولاً في كتاب: السودان وافريقيا في كتابات الرحالة من الشرق الغرب. تحرير نوري الجراح، أبو ظبي: السويدي للنشر، ٢٠٠٦ صفحات ٣٧٧ – ٣٩٢، ثم نشر في مجلة الدراسات الإنسانية، كلية الآداب والدراسات الإنسانية، جامعة دنقلا، العدد الأول (٢٠٠٨)، صفحات ٩ – ١٧. وقد أعطاني الأخ علي مشكوراً نسخة مصححة ومنقحة من الموضوع ذاته، وهي النسخة التي رجعت إليها هنا.

(٣٩) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٠٥.

(٤٠) ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٤٠١ ، المقريزي، السلوك، ج ١، ص ٢٥٠ ، ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، في مسعد، المكتبة السودانية، ص ٢٦٩.

والعربان الريسية أو البرلسية. والمصادر الأخرى المعاصرة لتلك الأحداث مثل مؤلفات القلقشندي وابن تغري بردي لم تذكر أسماء أولئك الأعراب المصاحبين للحملة.

وليس من السهل التعرف على تلك الجماعات العربية. فلو افترضنا أن أولاد أبي بكر هؤلاء ينتمون إلى سلالة أبي بكر الصديق الذين كانوا في الأشمونيين مع قريش نواجه بعض الصعوبات. فسلالة أبي بكر في الأشمونيين كانوا معروفين ببني طلحة وليس بأولاد أبي بكر. وإلى جانب ذلك فإن المقريزي يرى أن بني طلحة لا ينتسبون إلى أبي بكر الصديق، بل إلي طلحة بن عمر التيمي.[٤١] ولذلك ليس من المقبول إرجاع أولاد أبي بكر الذين شاركوا في غزو مملكة المقرة إلى أبي بكر الصديق.

ونفس الموقف يتكرر مع أولاد شريف الذين لم يرد لهم تعريف في المصادر. فقد ورد ذكر بعض الأشراف مرتبطاً بالجعافرة، ولكن وردت هذه الصفة في كل الأحوال مُعرّفة مثل أولاد الشريف حصن الدولة، ولم أعثر على أولاد شريف في المصادر المشار إليها في البحث.

وإذا افترضنا أن أولاد عمر الذين ورد ذكرهم في الحملة المراد بهم أولاد عمر بن الخطاب الذين ورد ذكرهم ضمن قبيلة قريش في منطقة الأشمونيين، فإن هذا الافتراض لا يجد ما يسنده أيضاً لأن أولاد عمر عرفوا بالعمريين، ومنهم العمري الذي حارب البجة والنوبة. هذا إلى جانب أن العمريين في عصر تلك الفتوحات كان مشكوكاً في نسبهم حسب قول المقريزي "وهم [العمريون] يكذبون في ذلك لأن أنسابهم لا تتصل به. وقد رأيت جماعة منهم وعرّفتهم كذبهم بطريق علمته".[٤٢]

(٤١) المقريزي، البيان والإعراب، ص ٣٥.

(٤٢) نفس المصدر، ص ٤١.

وإذا افترضنا أن أولاد عمر ينتمون إلى فرع من قبيلة هوارة يعرف بهذا الاسم وقد كانوا أمراء جرجا وما والاها كما ذكر القلقشندي،[٤٣] فإن هذا الافتراض لا يبدو مقبولاً أيضاً لأن هوارة أصبح لها السيادة والأغلبية في نهاية العقد الأخير من القرن الثامن الهجري أي بعد أكثر من عشر سنوات من تاريخ تلك الغزوة.

وهنالك فرضية أخرى، وهي أن يكون أولاد عمر وأولاد شيبان من قبيلة قضاعة. وكما هو واضح في الشكل أدناه فإن لقضاعة ابن اسمه عمر، ولأسلم بن قضاعة ابن اسمه شيبان. فهل من الممكن أن يكون أولاد عمر وأولاد شيبان المذكورون في غزو المماليك لمملكة المقرة هما أبناء قضاعة؟

لا أرى هذا الافتراض مقبولاً لأن عمر هو والد قبيلة بلي ذات الحضور الواضح الذي تناولته المصادر العربية منذ أيام الفتح الأولى تحت اسم قبيلة بلي، ولم ترد الإشارة إليهم تحت اسم أولاد عمر. ولذلك فمن غير المقبول أن نفترض أن أبناء عمر قصد بهم قبيلة قضاعة. كما أنه من غير المقبول أيضاً افتراض أن أبناء شيبان المذكورين في الحملات ضد مملكة المقرة هما ابنا شيبان بن أسلم بن قضاعة إخوان جهينة لأنه لم يرد ذكر لهذا الفرع في مصر منذ أيام الفتح الأولى وحتى عصر المماليك. ولذا فمن المستبعد جدّاً أن يكون بنو شيبان القضاعيون قد اشتركوا في الحروب بين المماليك ومملكة المقرة.

وهكذا إذا استثنينا بني هلال وبني الكنز من تلك الحروب وجدنا أنه من الصعب جدّاً التعرف على باقي العربان في جيش المماليك. ومن المقبول جدّاً أن يكونوا فروعاً صغيرة غير مشهورة من القبائل العربية أو المغربية في المنطقة. ويعني ذلك أن

(٤٣) القلقشندي، قلائد الجمان، ج ١، ص ٤٩.

أغلب العربان الذين اشتركوا في الحروب ضد مملكة المقرة كانوا فئات صغيرة وقليلة العدد، ويظل التعرف عليهم تحت الدراسة والبحث. والملاحظ أن بني جعد اللخميين والعكارمة الأنصار الذين شاركوا في الأحداث بعد إسلام ملوك مملكة المقرة لم يرد ذكرهم ضمن العربان الذين شاركوا في غزو مملكة المقرة. كما لم يرد أي ذكر لقبيلة جهينة.

الخاتمة

السؤال الهام الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا جاءت مادة ابن خلدون عن النوبة مختصرة جدّاً وغير دقيقة وعامة، بل وفي بعض الأحيان غير صحيحة؟ هل نتج ذلك عن عدم توفر المعلومات عن أحداث بلاد النوبة؟ بالطبع لا، فقد قضى ابن خلدون الأربع والعشرين سنة الأخيرة من عمره في القاهرة، وهي مسرح الأحداث وموطن المعلومات عن بلاد النوبة.

السبب كما أراه هو عدم اهتمام ابن خلدون بأحداث بلاد النوبة وتاريخها، حيث يهتم بجمع المعلومات وتقصي الأخبار وهو القادر على ذلك، فجاءت أحكامه كما وصفناها. فقد تناول كل تاريخ العلاقات بين المسلمين ومصر منذ بدايتها في عصر عمرو بن العاص وحتى عصر المماليك في أقل من خمس صفحات تناول فيه قبل عصر المماليك حدثاً واحداً، فقط وهو غزو توران شاه أخ صلاح الدين الأيوبي للنوبة عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م. هذا بينما تناول معاصره ابن الفرات ست غزوات ضد النوبة قبل غزوة طوران شاه.[٤٤]

(٤٤) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

وكان من الممكن أن تظل تلك الأحكام العامة كغيرها من أحكام بعض الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ النوبة بصورة مقتضبة وغير دقيقة، ولكن المشكل فيما أصدره ابن خلدون من أحكام أن المؤرخين غربيين وشرقيين بنوا دراساتهم في تاريخ السودان، ليس فقط في انهيار مملكة المقرة المسيحية، بل امتد آثار تفسير تلك الأحكام – غير الموثوق بها – لتفسر واقع مجتمعنا المعاصر. وأكرر هنا أنه ينبغي علينا التعامل مع نصوص ابن خلدون عن جهينة والنوبة بحذر شديد، وعدم الاستشهاد بها وضرورة مراجعة ما تم الاستشهاد به من تلك النصوص.